Writing: Its Tools and Connotations The Invariable and the Varying (Al Jahiz as an archetype)

Leila ALabidi
Assistant Professor – PHD in Old Literature
University Of Sharjah – Arabic Language Department
labidi@sharjah.ac.ae

DOI: 10.31973/aj.v1i140.1428

Abstract:

The following article is concerned with writing as a human and existential reality that had insofar lured the interest of the ancient Arabs, mainly in the field of literature, for they examined, distinctively, the written verb in its transmission and acceptance, and through its relationship to traditional tools used in writing such as ink, paper and pen. Our reliance on an old Arabic archive did not prevent us from observing the transformations that had occurred in writing while shifting to the electronic stage, whatever its importance, there is no real disjointing between the classical and the new-fangled types of writing. Within this specific context, we mean by "writing" the original implication that the ancient Arabs called "in-ink" (a word derived from ink) and this without neglecting any of its seminal meanings in the connotation of the creative and structural writing, which finds its best idiomatic configuration in literature. And if we have been chiefly concerned with the Arab theory of writing through Al-Jahez in particular (while focusing on the symbolic implications of its tools in the Arabic/ Islamic imagination by disassembling, analyzing and interpreting), we have not the least bit failed to spot the tribulations which the contemporary Arabic writing is undergoing during the electronic globalization era. We are, thus, striving to understand as well as benefit as much as possible from modern anthropological knowledge.

Keywords: Writing, Ink, Paper, Dissertation, Communication.

الكتابة: أدواتها ودلالاتها بين الثابت والمتحوّل (الجاحظ أنموذجا)

د. ليلى العبيدي
أستاذ مساعد – دكتوراه في الأدب القديم
جامعة الشارقة – قسم اللغة العربية

(مُلَخَّصُ البَحث)

إنّ تاريخ الكتابة هو تاريخ الإنسان وهو يطوّر من وسائل عيشه وتقنيات سيطرته على الطبيعة وترويض توحّشها وتسخيرها لخدمته وراحته والكتابة هي صورة لهذا الإنسان في صيرورته التاريخيّة وهو يجتهد في أن يكتب وجوده على الحجر والشجر ثمّ جلود الحيوان وصولا إلى الورق الذي عرف بدوره تطوّرا مذهلا من العصور الوسطى وبعد الثورة التكنولوجيّة إلى اليوم في إخراجه على أحسن وجه شيئا فشيئا .

ننشغل في هذا المقال بالكتابة بوصفها فعلا إنسانيّا ووجوديّا استقطب اهتمام العرب القدامى، لاسيما في مجال الأدب وذلك من خلال النظر على وجه الخصوص في الفعل الكتابي في بثّه وتقبّله ومن خلال علاقته بالأدوات التقليدية المستعملة في الكتابة مثل الحبر والورق والقلم. ولم يمنعنا اعتمادنا على مدوّنة عربيّة قديمة من رصد التحوّلات التي عرفتها الكتابة بانتقالها إلى المرحلة الالكترونيّة لما في ذلك من أهميّة، لا يمكن فيها فصل الحديث عن القديم . ونعني بالكتابة في هذا السياق دلالتها الأولى التي أطلق عليها العرب القدامى تحبيرا (من الحبر) دون أن نهمل دلالتها الحافة في معنى الكتابة الإنشائيّة الإبداعيّة التي تجد أفضل تعبيرا لها في الأدب. وإذا كنّا قد انشغلنا بصفة خاصة بنظريّة العرب في الكتابة من خلال الجاحظ على وجه الخصوص وتتبّع رموز أدواتها في المتخيّل العربي الإسلامي بالتفكيك والتحليل والتأويل، فإنّنا لم نهمل الإشكالات التي تعيشها الكتابة العربيّة المعاصرة في دلالتيها المذكورتين في عصر العولمة الالكترونيّة محاولين –لفهمها– الاستفادة أكثر ما يمكن من المعارف الانتروبولوجيّة الحديثة متسلحين في ذلك بأهم المناهج التحليلية الدقيقة، لنقف على أهمّ التداعيات النفسيّة والثقافيّة –من وجهة نظر انتروبولجية– على الكاتب الباث والقارئ المتقبّل .

الكلمات المفاتيح: الكتابة – الحبر– الورق– التدوين– التواصل.

المقدمة

ترتبط الكتابة بالحبر على مرّ التاريخ البشري ارتباط ظاهر الورقة بقفاها. فالكتابة باعتبارها فعلا ثقافيّا سعى من خلالها الإنسان ومازال كذلك إلى إثبات وجوده في الكون ، وضبطه وتأسيسه ومن ثمّة تنظيمه وتخليد مروره العابر به، ما كان له أن يتمّ دون الالتجاء

إلى الرسم والنقش على الحجر والشجر، كما أثبتت ذلك الحفريات في ما تركه الإنسان من تراث مادي منذ العصور الغابرة ، وفي مرحلة ثانية بعد اكتشافه للحبر في مرحلة متأخّرة نتيجة مباشرة لاكتشافه للنار التي كان لها الأثر الأساس في نقلته من مرحلة التوحّش إلى مرحلة التحضّر والآدميّة. فلا بدّ من أن نستحضر هذه الحقيقة كما يقول مارك شانيتيان (Marc Chénetier) التي تتمثّل في أنّ الحبر يُولد من الاحتراق ومثله مثل القلم الفحميّ يستمدّ سواده من النار[١].

ما نقوله عن ارتباط الكتابة بالحبر يُقال عن صلاتها التاريخيّة بالورق والقلم ، وكلّ أدوات الكتابة التقليديّة من محبرة وقرطاس ، ومقلمة والجفّاف الذي يمتصّ الحبر السائل في غير موضعه على ورقة الكتابة والذي يهدّد بطمس بعض ما حُبِّر وكُتِب، وهي أدوات لازمت الفعل الكتابي لقرون طويلة، قبل أن يشهد هذا الفعل ثورة عظيمة بنشأة الكتابة الإلكترونيّة وانتشارها على نطاق واسع في عالم يعولم أكثر من أيّ وقت مضى، ليس فقط الاقتصاد والثقافة والذوق العام في الأكل واللّباس، وإنّما كذلك الكتابة ذاتها.

١ –الكتابة وقضاياها في الطور الإلكتروني:

لقد بدأت الكتابة تتنصّل تدريجيّا من التزاماتها القديمة وتفكّ ارتباطها وقرانها بأدواتها التي ذكرناها ولم يعد القرطاس والقلم يعرفان صاحبهما[٢] ولا عاد هو يعرفهما كما كان الأمر عليه منذ قرون وصار الكاتب اليوم يهجر شيئا فشيئا قلمه وحبره ومحبرته وقرطاسه وورقته إلى الكمبيوتر وملامسه الحرفيّة والرقميّة ويلوذ مكرها أخاك لا بطل في الكثير من الأحيان إلى الفضاء الافتراضي والكتابة فيه عسى أن يضمن أكثر رواجا وانتشارا لما يكتبه وبأكثر سرعة ممّا كان يكتبه على الورق بخطّه وحبره وقلمه.

فما هو حال الكتابة وهي تنتقل من طور إلى طور، من الذاتيّة الأكثر حميميّة التي سبقت عصر الكتابة التكنولوجية بعد اختراع المطابع وآلات الكتابة العصريّة ثمّ بعد ذلك العولمة الالكترونيّة التي زادتها تعقيدا، هذه الذاتيّة التي طالما ترجمها الكتّاب أوّلا بخطوطهم وطرق رسمهم للكلمات المختلفة، اختلاف بصمات أيديهم بواسطة القلم والحبر والورقة والتي طالما التصقوا بها التصاق الرّضّع بأثداء أمّهاتهم، إلى طور الشكلانيّة والنمطيّة التقنيّة والالكترونيّة المعولمة التي تكاد تنفي الخصوصيّات الفرديّة إنْ لم يكن في أسلوب الكتابة الذي يظلّ مع ذلك فرديّا خالصا "الإنسان نفسه" فعلى الأقلّ في مستوى علاقة الكاتب بما يكتبه وبنفسه وبقارئه وبموضوع كتابته؟ تمّ هل يمكن للكتابة اليوم أن تحافظ على صدقية

---

(1) Marc Chénetien, *Sgraffites, Encres et sanguines*, Paris, Ed. ENS, Rue d'ULM, 1994, p.6

(٢) هو تضمين لجزء من بيت أبي الطيب المتنبّي القائل:
الخيل واللّيل والبَيْداءُ تَعْرِفُنِي ❖ وَالسَّيْف والرُّمْح والقرطَاسُ والقَلَمُ

رسالة الكاتب وقدرتها الإبلاغيّة، وتمرّر الشحنة العاطفيّة التي يشحن بها الكاتب مكتوبه بالخطّ والقلم والحبر كما يدلّل عى ذلك أبوحيان التوحيدي منذ عشرة قرون وهو يخاطب قارئه " وأنا أعيده ههنا بالقلم، وأرسُمُه بالخطّ ... حتّى يكون اعترافي به أرسى وأثبت وشهادتي على نفسي أقْوى وأوْكد، ونُكُولي عنه أبْعدُ وأصعب وحكمك به لي وعليّ أمْضى وأنْفذ "[٣] .

ماهي التداعيات النفسيّة والثقافيّة– من وجهة نظر أنتروبولجية –على الكاتب الباث والقارئ المتقبّل؟ وإلى أيّ حدّ يمكن للكتابة في طورها المعولم أن تحقّق لكاتبها وقارئها ما سمّاه رولان بارت (Roland Barthes) "متعة النصّ" ؟(وهو عنوان لأحد كتبه) ثمّ هل بالإمكان للإنسانيّة أن تحافظ في النمط الجديد للكتابة على طبيعة الكتابة بأدواتها التقليديّة: الورق والحبر والقلم كما عرفتها طوال تاريخها وكما تشهد بذلك بعض النصوص العربيّة اللّغوية والأدبيّة المدوّنة والتي يحمل بعضها آثار المشافهة باعتبارها فعلا وجوديّا يتمحور حول معاني الخصوبة والنماء وتجديد الحياة والحفاظ على النوع البشري ثمّ أخيرا وليس آخرا إذا كانت حركة التاريخ تسير إلى الأمام ومن العبث إرجاعها إلى الوراء، وتبعا لذلك لا مفرّ من التسليم بدخول الكتابة مرحلة جديدة ونوعيّة هي المرحلة الالكترونيّة التي ينبغي الاستفادة منها في نشر المعرفة على نطاق واسع وتحرير الكتابة من ربقة المطابع الورقيّة، ما هي السبل الكفيلة بالحفاظ على إرث الكتابة التقليديّة التي توارثته البشريّة جيلا بعد جيل طيلة قرون من الزمن؟ لا شكّ أنّ هذا الإرث هو جزء من التراث المادي للإنسانيّة، وإذا كانت اليونسكو قد طرحت على نفسها مهمّة الحفاظ على هذا التراث مثل حفاظها على المئات من اللّغات المهدّدة بالانقراض، أفليس من الطبيعي أن يسعى الكتّاب إلى الحفاظ على إرث الكتابة، خطّا وورقا وقلما وحبرا؟ ليس في المتاحف فقط، وإنّما كذلك عبر السعي إلى أن تتبنّاه المدارس على الأقلّ في المراحل الابتدائية والإعدادية، لا سيما وأنّ هذا التراث ليس ماديّا صرفا وإنّما هو ينقل تجربة وجدانيّة وروحيّة يختلط فيها العامل الثقافي بالنفسي والذاتي بالموضوعي على نحو كبير؟

إنّ تاريخ الكتابة هو تاريخ الإنسان وهو يطوّر من وسائل عيشه وتقنيات سيطرته على الطبيعة وترويض توحّشها وتسخيرها لخدمته وراحته والكتابة هي صورة لهذا الإنسان في صيرورته التاريخيّة وهو يجتهد في أن يكتب وجوده على الحجر والشجر ثمّ جلود الحيوان وصولا إلى الورق الذي عرف بدوره تطوّرا مذهلا من العصور الوسطى وبعد الثورة التكنولوجيّة إلى اليوم في إخراجه على أحسن وجه شيئا فشيئا. الحبر كذلك عرف نفس التطوّ، بحيث اجتهد الإنسان على مرّ العصور في اشتقاقه من روث الحيوانات (من بعر

[٣] أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، (تصحيح وشرح أحمد أمين وأحمد الزين)، بيروت- صيدا، المكتبة العصريّة، (د.ت)، ص. ٣

الأغنام والإبل) ومن شتّى أنواع النبات والأشجار بطرق يدويّة بسيطة وصولا إلى تصنيعه بأجود التقنيات الحديثة والتفنّن ليس فقط في إخراجه بألوان مختلفة بل في اللّون الواحد باعتماد تقنية كيميائيّة متطوّرة في إخراج الحبر الأسود بدرجات يتكثّف فيها السواد ويغمق أو يبهت تدريجيّا إلى أن يصل إلى مشارف الرّمادي أو إليه، كلّ ذلك بحثا عن راحة عيني الكاتب والقارئ معا. فلا غرابة إذن أن نقرأ مثلا في ملاحق نشريات المختصّين في الكتابة " الصحية " والذين يعتبرون أن الحروف هي رسوم فنّية، أنّ على أصحاب المطابع أن ينتبهوا إلى ضرورة التفكير في عيون القرّاء وراحتها وينصحونهم على سبيل المثال بأن " يطبعوا ليس بالحبر الأسود وإنّما بالحبر الرمادي لكونه يرسم الحروف بأكثر لطف وانشراح على الورق الأبيض الجميل"[٤] .

لقد ارتبط الحبر مثله مثل الورق والقلم بالمخيال الكتابي للإنسانيّة بقدر ارتباطه بالإنسان ذاته منظورا إليه قبل كلّ شيء في جسده[٥]،غير أنّ العولمة التي تعدّ الكتابة الالكترونيّة أحد أهمّ مظاهرها بدأت شيئا فشيئا تغيّب هذه العناصر . فقد قضت على القلم وهي إن لم تقض على الحبر والورق، فهي تحجّبهما عن الكاتب الذي لم يعد له علاقة بالحبر يهيّئه في المحبرة وقد يلمسه عمدا أو سهوا ويلطّخ به أنامله ويشتمّ رائحته ويتأمّل زرقته أو سواده وهو ينساب على ورقته يرسم حروفا يعمل على أن تكون مكتوبة ومقروءة على أحسن وجه وأن تخرج لناظره وأنظار غيره في أبهى مظهر وفي أحسن إخراج، حروفا لا يضمّنها أفكاره فقط وإنّما أحاسيسه وانفعالاته التي لا يفطن لها إلّا الخبيرون في قراءة الخطوط وتأويلها من المختصّين في جماليتها وتأويلها ضمن تأويليّة (herméneutique) خاصّة بها. فالحبر مخزّن في خراطيش توجد في مجاهل الآلة الطابعة لا يراها الكاتب ولا تراه. أمّا الورق فقد يستغني عنه تماما مادام بإمكانه أن يقرأ ما كتب مباشرة على شاشة الجهاز تماما مثل قارئه ومتقبّل نصّه الذي إنْ أراد أن ينسخ ما تلقّاه من مكتوب على الفضاء الافتراضي لسبب من الأسباب فهو غير ملزم بذلك لتلقّيه، علاوة على أنّ بنسخه على الورق بواسطة الآلة الناسخة في حركة ميكانيكيّة من شأنه أن يغيّر من العلاقة الحميمة

---

(4) Appendices: *Postscriptum*, les lettres comme peinture, Précautions que les imprimeurs4 devraient prendre par rapport aux yeux in Page Kant – Anthropologie.djvu 483, fr.wikisource.org

(٥) رسم الإنسان ومازال يرسم على جسده بالحبر أوشاما مختلفة: انظر حول هذه النقطة:

Sébastien Lo Sadro, « Flesh, Ink and Everiday *life* (De chair, d'encre et du quotidien: une ethnographie, du corps tatoué) », in *Varia*, N° 52-53, 2009.

الحبر له علاقة كذلك بالصورة والضياء وبإرادة الإنسان في تخليد اللّحظة الهاربة عبر إثبات الذكرى كتابة بالحبر أو بالصورة، انظر:

Roberto Patricio Rojas San Martin, « D'encre et de lumière », in *colloque international de Lestamp: Les sociétés de la mondialisation*, Université de Nantes, 2004

التي تربط الكاتب والقارئ بالورقة أو بالأوراق إذا تعلّق الأمر بكتاب، رغم أنّ هذه العلاقة نفسها قد تغيّرت منذ زمن طويل بعد أن صار القارئ يقرأ الكتاب مطبوعا بالتقنية الحديثة، وليس بخطّ صاحبه أو بخطّ أحد الناسخين والورّاقين كما كان الأمر في العصور الوسيطة. فالكتابة الالكترونيّة[٦] جاءت لتلغي عنصرا أساسيّا في علاقة الكاتب بالمكتوب والقارئ بالمقروء، وما بينهما الورقة يتمثّل في الملامسة إنْ لم نقل المداعبة لأن الكاتب المولع بما يكتب والقارئ المشتعل رغبة بما يقرأ يتجاوز ملامسة الورقة بمداعبتها بأنامله ويدخل تبعا لذلك في تواصل حميمي معها ولذلك نرى أنّ المختصّين في الطفولة ينصحون الوالدين على تربية أطفالهم في سنّ مبكّرة قبل أن يتعلّموا الكتابة والقراءة على ملامسة الكتاب حتّى يخلقوا ألفة بينهمز وبينه تدريجيّا ليغرموا به ويصير لهم أنيسا منذ الصغر .

لقد أدّى استسهال التعبير عن رأي أو موضوع ما بسرعة وضمان التواصل في سرعة البرق عن طريق الكتابة الالكترونيّة إلى نقص فادح في أهمّية الكتابات الورقيّة وفي إلغاء تقليد تاريخي عايش الإنسان منذ العصور القديمة يتمثّل في الرسائل الخطّية الورقيّة التي تصل عن طريق البريد (وعن طريق الحمام المدرّب في عصور مضت) التي عوّضتها اليوم الرّسائل الالكترونيّة وتبعا لذلك حرمان المتلقّي للرسالة، لاسيما عندما يكون حبيبا أو صديقا من أن يشعر وهو يلامس الورقة ويتأمّل في خطّها بأنّه في تواصل عاطفي ووجداني مع مرسلها وقد يحافظ عليها بوصفها شيئا ملموسا وثمينا بين دفاتره وأمتعته المهمّة. ولا شكّ أنّ للكتابة الالكترونيّة إيجابياتها، فهي شيّقة ومغرية وتتميّز بالسرعة الفائقة كما أنّها تسمح للكاتب بأن يصحّح العبارات والأخطاء النحوية والصرفية وتغيير التراكيب في وقت وجيز وبدون أيّ تكلفة أو تعقيد وهذا ما لا توفّره الكتابة الورقيّة والمطبوعات خاصة إذا ما تعلّق الأمر بنشر كتاب وإذا ما وفّرته، فإنّ ذلك يحدث بعد مدّة طويلة في الطبعات اللّاحقة المنقّحة له. إضافة إلى ذلك تمكّن الكتابة الالكترونيّة في الأنترنات من إضافة الألوان والصور وحتّى الصوت إلى المادة المكتوبة وسائر "الوجوه التعبيريّة " كما يُصطلح عليها، ما يقوّي من قدرتها البلاغيّة وتعزيز الأفكار التي تسعى إلى إيصالها وتكثيف دلالاتها النفسيّة والانفعاليّة ويدعّم طابعها التوثيقي العلمي خاصة في البحوث الاجتماعيّة والإنسانيّة والتاريخيّة التي قد تلتجئ إلى البحث الميداني والمساءلة ونقل شهادات حيّة من الميدان تدعّم تحليل الباحث ومقاربته للموضوع المدروس. فكما لاحظ بعضهم وهو يرصد تأثيرات الثورة التقنيّة على حركيّة التجربة الكتابيّة وصيرورتها، هذه التجربة التي لها قابليّة دائما لاحتواء

---

[٦] انظر حول الكتابة الالكترونية:

Foued Laroussi, « Electonic Arabic – French code Switching », in *Code – switching, Languages in contact and Electronic writings*, (ed), Peter Lang, Frank furt 2011, pp. 133 – 146.

التجارب التقنيّة المستحدثة ، فإنّ انتقال التجربة الكتابيّة في شكلها التدويني من بساطة الكتابة اليدويّة إلى تعقيدات الكتابة والنسخ الالكتروني قد أفضى بدوره إلى بروز تجربة كتابيّة مستجدّة بملامح مختلفة وإطار مغاير لتجربة الكتابة التقليديّة وتفاصيل دقيقة لا تتحقّق إلّا في هذه التجربة وتكاد تكون حكرا عليها ولربّما لا تترك للتجربة القديمة في كثير من الأحيان إلّا رسم الحروف وترتيب الجمل مع اختلاف في كلّ شيء[٧].

بيْد أنّ هذه الكتابة خلافا للكتابة الورقيّة التي تتآلف فيها أدواتها في علاقة حميمة وحسّية مباشرة مع الكاتب الذي عايشها منذ صغره وعاشرته وعاشرها طويلا والتي قد تكون مساهمة بشكل فعّال بوصفها مصدر إلهام في ما يبدعه من خواطر وأفكار وصور إنشائيّة تعتمد بصفة أساسيّة على النظر وعلى السماع عندما ترافق الصفحة المكتوبة موسيقى أو أنغام ولا يمكن تبعا لذلك للكاتب أو القارئ أن يلمس الصفحة على الأنترنات أو أن يذيّلها بملاحظة أو أن يكتب في هامشها وحواشيها أو أن يخطّ بقلمه كما يفعل في الصفحة الورقيّة خطّا تحت كلمة أو تعبير كما لا يمكن أن يحملها إلى فراشه ويتابع قراءتها لتهدهده وتهيّئه للاسترسال في نوم عميق فهي في حاجة دائما إلى جهاز كمبيوتر وكهرباء وبطارية وغيرها من المستلزمات التقنيّة التي من الصعب أن يتّصل بها الكاتب أو القارئ بصفة حميمية لكون التقنية بطبعها حديديّة جافّة وصنميّة وتفتقد إلى ما يمكن أن يثير في الذائقة الجماليّة إحساسا فنّيا راقيا وشعورا إنسانيّا نبيلا .

لكلّ هذه العوامل لا بدّ من التساؤل اليوم تساؤلا مشروعا لا بدّ من طرحه لكلّ متأمّل في وظائف الكتابة النفسيّة والتواصليّة حول مدى قدرة الكتابة في طورها الجديد وفي علاقتها بباثها ومتلقّيها أن تحقّق ما سمّاه بارت (R. Barthes) بمتعة النصّ. "إنّ النصّ الذي يحقّق المتعة كما يقول بارت هو النصّ الذي كَتب بمتعة .....إنّ النصّ الذي تكتبَه ينبغي أن يبرهن لي أنّه يرغب فيّ. يُوجد هذا البرهان وهو الكتابة. الكتابة هي ما يلي: علْم ملذّات اللّغة "[٨]. هنا تختلف تجارب الكتاب في تحقيق هذه المتعة من واحد إلى آخر ولكنّ الغالب على الكتّاب الذين عاشروا طويلا القرطاس والقلم و"تغدّرت" أناملهم بالحبر واعتادوا " التحبير" كما يقول العرب القدامى للدلالة على فعل الكتابة على الورق هو إحساسهم بالاستلاب في عالم الكتابة الالكترونيّة وإحساسهم بالاغتراب في عالم كتابتهم ذاتها التي هي من إنتاجهم شكلا ومحتوى ولكنّها ليست من تحبيرهم ولا تتحقّق إلّا بوساطة انقادوا إليها مكرهين هي وساطة الآلة والكمبيوتر التي تشيّئ إبداعهم ولا تجعلهم في تواصل مباشر مع

---

[٧] انظر مثلا محمد الرّاشدي: "الوجوه التعبيرية في الكتابة الالكترونية، ينبع، الثقافة والأدب، ملتقى شذرات عربية:

www.shatharat .net

[8] Roland Barthes, *Le Plaisir du texte*, Paris, éd du Seuil, 1973, pp. 13-14

ما يكتبونه، في حين أنّ الأجيال الجديدة التي نشأت مع نشأة الأنترنات لا تشعر بنفس الإحساس في الغالب وتعيش متعة النص في الفضاء الافتراضي كما لو أنّها تعيشه في الواقع بكلّ حواسها!

٢-الكتابة في الثقافة العربية الإسلامية القديمة من خلال الجاحظ:

في الحقيقة، لا بدّ من التفريق في فعل الكتابة بين الكتابة بمعنى النسخ كأن يتولّى الكاتب نسخ نصّ ليس بمنتجه والكتابة الذاتيّة العاديّة والإنشائيّة. فالنوع الأوّل من الكتابة كان موضوع وظيفة قائمة الذات لدى العديد من الشعوب التي عرفت التدوين بما في ذلك العرب الذين ازدهرت هذه الحرفة لديهم في دواوين الخلفاء والولاة والسلاطين على امتداد تاريخ دولهم منذ العصر العبّاسي والتي أطلق عليها في القرن الرابع الهجري الأديب والفيلسوف أبو حيان التوحيدي الذي امتهنها في فترة من فترات حياته بـ" حرفة الشؤم "، ما يبرّر لربّما بعض ما ذكره الجاحظ فيها كما سنرى لاحقا والتي ناله منها وهو الذي حُبست أجرته عليها كما يشهد بذلك في هذا القول " الحرمان المرّ والصدّ القبيح والجفاء الفاحش والقدع المؤلم والمعاملة السيّئة والتغافل عن الثواب على الخدمة وحبسِ الأجرةِ على النسخ والوراقة"[٩]، ولمحترفي هذه المهنة من الكتاب أزياؤهم وهيئتهم الخاصة بهم في العصر العبّاسي تميّزهم عن غيرهم تماما مثل الشرطة والحجّاب والجند، فيرتدي الواحد منهم الجبّة العريضة التي تتدلّى إلى أسفل قدميه يجرّها وراءه ويعقص شعره على صدغه ويضع الشابورتين وهي خوذة من أصل فارسي على وجهه، كما يشهد بذلك الجاحظ الذي نقد في حدّة تكبّر هذا الجنس من الكتّاب وصلفهم في رسالته " ذمّ أخلاق الكتّاب " قائلا " ثمّ هو [أي الكاتب] مع ذلك في الذروة القصوى من الصّلف والسّنام الأعلى من البذخ والبحر الطّامي من التيه والسرف. يتوهّم الواحد منهم إذا عرّض جُبَّته وطوّل ذيْله وعَقص عل خدّه صُدغه وتحذّف الشابورتين على وجهه أنّه المتبوع ليس التابع والمليك فوق المالك"[١٠].

أمّا الكتابة الذاتيّة، فهي التي يكون كاتبها هو صاحبها ومنتجها سواء كانت كتابة عادية لغرض تواصلي بسيط في الحياة اليوميّة أوكتابة إنشائيّة إبداعيّة نثرية أو شعرية. لم يتعرّض النوع الأوّل من الكتابة بل قل الكتّاب في تاريخ الحضارة العربيّة الإسلاميّة ولربّما في تاريخ هذه الحرفة التي عرفتها سائر الحضارات التدوينيّة للتجريح والنقد كما تعرّضوا له من قِبل أبي عتمان الجاحظ في القرن الثالث للهجرة في رسالته التي ذكرناها. وقد يعود هذا النقد اللّاذع لهم لا لعيب في الكتابة ذاتها التي أكسبتهم هذه المثالب التي عدّدها الجاحظ في رسالته وإنّما لأنّ هؤلاء الكتّاب في عصره كانوا في أغلبهم كما لاحظ علي أبو ملحم محقّق

[٩] أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ص.٣- ٤

[١٠] الجاحظ، رسالة ذم أخلاق الكتاب في رسائل الجاحظ السياسية، تقديم وشرح علي أبو ملحم، بيروت، دار مكتبة الهلال، ١٩٨٧، ص ٦٠٧.

هذه الرسالة من أصل فارسي عُرفوا بشعوبيتهم وهي نزعة عنصريّة معادية للعنصر العربي تفشّت في عصره مثل ابن المقفّع ويونس أبي فروة وازدان اقذار وابراهيم بن اسماعيل[١١] وغيرهم الذين عمل الجاحظ على التشهير بهم وتعداد مثالبهم.

لا يفسّر الجاحظ الدور الذي لعبته الكتابة في انحرافهم ولكنّه يعطي الانطباع أنّها السبب في ذلك فلا يترك مذمّة إلّا وألصقها بها فيجرّدها من كلّ قيمة إيجابيّة فيقول " ولو كانت الكتابة شريفة والخطّ فضيلة كان أحقّ الخلق بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وكان أولى الناس ببلوغ الغاية فيها ساداتهم وذوو القدر والشرف فيهم. ولكنّ الله منع نبيّه صلّى الله عليه وسلّم ذلك وجعل الخطّ فيه دنيّة وصدّ العلم به عن النبوّة ثمّ صيّر الملك في ملكه والشريف في قومه يتبجّح برداءة الخطّ ويُنبل بشَنج الكتاب... وكتب أحمد بن يوسف يوما بين يدي المأمون خطّا أعجبه فقال: وددت والله أنّي كتبت مثله فقال له أحمد: لا تأْسَ عليه يا أمير المؤمنين، فإنّه لو كان حظّا ما حُرمَه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم"[١٢].

فالكتابة بمعنى النسخ والخطّ في تأويل الجاحظ فعل مجرّد من أيّ قدسيّة، بل وقع صدّ العلم به عن النبوّة عل حدّ تعبيره. والمفارقة تكمن في أنّه حين يذهب الاعتقاد السائد إلى حدّ يومنا هذا في فنون الخطّ ورسم الحروف أنّ الخطّ الجميل الذي تفنّن العرب فيه كما تشهد بذلك المخطوطات التي تركوها وحُفظت في المتاحف محمود في ذاته بقطع النظر عن محتوى ما يخطّه يصبح لدى الجاحظ فعلا يشين لصاحبه وهنا يقلب الجاحظ الأمور رأسا عل عقب حيث تصبح رداءة الخطّ مماّ يتفاخر به أشراف القوم يما في ذلك المأمون ذاته خليفة المسلمين وصاحب بيت الحكمة الذي يدعوه كاتبه إلى ألّا يتأسّى لعدم قدرته الكتابة بخطّ جميل. يحاول الجاحظ في هذه الرسالة جاهدا أن يجعل من سوء أخلاق الكتّاب على حدّ اعتقاده نتيجة حتميّة لطبيعة مهنتهم تماما مثلما يطلق على ذلك اليوم بـ" الانحراف المهني"[١٣] فطبيعة عملهم التي تجعل الواحد منهم عبدا وخادما مأمورا في موضع المفعول به دائما وليس في موضع الفاعل قطّ يكتب ما يؤمر بكتابته دون زيادة أو نقصان علاوة على أنّها تصيّرهم كالآلة فتنزع عنهم، إذا استلهمنا مصطلحات فلسفة العمل الحديثة إنسانيتهم وتمحو شخصيتهم، يكتبون في اغتراب (Aliénation) كامل عن أنفسهم كما هو حال زملائهم في الشغل اليوم بل حال حتّى الكتّاب الإنشائيين في عصرنا الذي يفرض عليهم بإفرازاته المعقّدة غربة عمّا يكتبونه[١٤]، فهي تورّثهم الغباء والغفلة. يقول الجاحظ "

---

[١١] المصدر نفسه، ص ٦٢١-٦٢٢

[١٢] الجاحظ، رسالة ذ م أخلاق الكتاب، ص ٦٠٦-٦٠٧

[13] Ali Djabbari, « La Déformation professionnelle », in *Cahiers de sociologie du travail*, Tunis, ISFC - *IBLA*, n°2, 1961, p .5

[١٤] حول الاغتراب في الحياة المعاصرة والمفاهيم الحافة به. انظر:

Marc Augé*, Où est passé L'Avenir,* Paris, Editions du Seuil, 2011, pp. 73-89

ومع ذلك إنّ سِنح الكتابة بُني على أنّه لا يتقلّدها إلّا تابع ولا يتولّاها إلّا من هو في معنى الخادم ولم نر عظيما قطّ تولّى كفاية نفسه أو شارك كاتبه في عمله وكلّ كاتب فمحكوم عليه بالوفاء ومطلوب منه الصّبر... وتلك شروط متنوّعة عليه ومحنة مستحكمة لديه وليس للكاتب اشتراط شيء من ذلك، بل يناله الاستبطاء عند أوّل الزلّة وإنْ أكدى ويدركه العدل بأوّل هفوة وإنْ لم يرْض. يجب للعبد استزادة السيّد بالشكوى والاستبدال به إذا اشتهى وليس للكاتب تقاضي فائته إذا أبطأ ولا التحوّل عن صاحبه إذا التوى. فأحكامه أحكام الأرقّاء ومحلّه من الخدمة محلّ الأغبياء"[١٥]. ثمّ يضيف الجاحظ قائلا في الحطّ من منزلة الكتابة والكتّاب الذين هم أقرب إلى الخليفة والوزراء موقعا وأبعدهم عنهم مكانة وشرفا يكتفون بتحبير ما يُملى عليهم حرفيّا دون أن يكون لهم فيما يكتبونه إضافة نوعيّة، ماعدا التنسيق الشكليّ لأقوال غيرهم " وحسْبك بقوم أنبلهم أخسّهم في الرّزق مرتبة وأعظهم غَناء اقلّهم عند السلطان عقلا ، يُرزق صاحب ديوان الرّسائل – وبلسانه يُخَاطب الخلْق – العُشر من رزق صاحب الخراج ويُرزق المحرِّر – وبخطّه يكون جمالُ كتاب الخليفة – الجزء من رزق صاحب النّسخ في ديوان الخراج ....فإذا أبرم الوزراء التدبير ووقفوا منها على التقدير، طُرحت عليه رقعة بمعاني الأمر لينسّق فيها القول، فإذا فرغ من نظامه واستوى له كلامُه، أحضر له محرِّرَه فجلس إلى أقرب المواطن من الخليفة وأمنع المنازل من المختلفة، فإذا تقضّى ذلك فهما والعوام سواء"[١٦].

من الواضح أنّ الجاحظ ينتصر للكتابة الإنشائيّة التي يعتقد أنّه أهمّ مَن يمثّلها في المنتصف الأوّل للقرن الثالث للهجرة عل حساب الكتابة الإملائيّة وهو بذلك ينتصر للإبداع عل حساب الاتباع والعقل على حساب النقل. وإذا كان السياق لا يسمح هنا بمزيد تحليل هذه الرسالة على أهمّيتها في دراسة حرفة الكتابة النسخيّة باعتبارها وثيقة قلّ نظيرها في تناول هذه المسألة في الحضارة العربيّة الإسلاميّة، فإنّه لا بدّ من الإشارة إلى السبب الذاتي الذي قد يكون وراء هجوم الجاحظ على الكتّاب وحرفتهم وهو ما لاقاه منهم ومن غيرهم من عداوة وحسد ومكائد في ديوان الخليفة بوصفه كاتبا مفكّرا ومنظّرا وإماما من أئمّة البيان العربي خوفا على حظوتهم ومكانتهم[١٧]. فأن يكونوا معظمهم شعوبيين فهذا لا يبرّر الهجوم على مهنتهم، فماذا سيكون موقفه إذا تعلّق الأمر بكتّاب عرب معادين للشعوبيّة ، فالأولى في هذه الحالة دحر أفكارهم الشعوبيّة العنصريّة وبيان اختلالها وسقمها وكشفها للقارئ. وهو ما فعله الجاحظ في رسائل أخرى باقتدار مثل رسالته " في مناقب الترك " عوض الهجوم

---

[١٥] الجاحظ، رسالة ذم أخلاق الكتاب، ص. ٦٠٧

[١٦] الجاحظ، رسالة ذم أخلاق الكتاب، ص ٦٠٧

[١٧] الجاحظ، رسالة "فصل ما بين العداوة والحسد "، ص ٣٦٧ – ٣٩٤، وكذلك رسالة "التربيع والتدوير"، ص ٤٣١ – ٤٩٥ في رسائل الجاحظ الأدبية، شرح على أبو ملحم، بيروت، دار وكتبة الهلال، ١٩٨٧.

على الكتابة ذاتها التي هي قائمة الذات بهم ودونهم ولا ناقة لها ولا جمل في عنصريتهم وشعوبيتهم. فالورّاقون والناسخون على عكس ما يوهمنا الجاحظ قد ساهموا مساهمة فعّالة في تجويد الخطّ العربي حتّى يصبح مقروءا على أحسن وجه وبسرعة وتحسين الكتابة بلغة الضاد، كتابة عرفت باسمهم " كتابة الناسخين " التي كان من ثمراتها ازدهار فنون صناعة الكتاب في العالم العربي الإسلامي، هذا علاوة على دورهم الفعّال في انتقال الخطّ من الورق إلى المعمار والأواني والقماش يزخرفها ضمن جماليات عرفت بها وبقي البعض منها إلى الآن شاهدا على مكانة الخطّ والخطّاطين في ازدهار الفنون الإسلاميّة[١٨].

ومن البديهي أنّه إذا نحونا نفس المنحى اليوم واستلهمنا منطق الجاحظ الحجاجي، لكن في اتجاه عكسيّ لاتّجاهه في ذلك العصر دفاعا عن النسخ والخطّ الجميل اللّذين لا نرى الجاحظيين اليوم، بل الجاحظ نفسه وهو يعيش بيننا إلاّ في موقع الدفاع عنهما دفاعا مستميتا لوجّهنا سهام نقدنا للكتابة الالكترونيّة ليس فقط لكونها تلغي أدوات الكتابة التقليديّة وجمالياتها الخطّيّة وتحرم الكتّاب من الوجاهة الاجتماعيّة التي كانوا يتمتّعون بها وبدت من خلال زيّهم الرسمي في عصره وإنّما كذلك لأنّ من مظاهرها العبث بالبيان العربي الذي أفنى الجاحظ عمره في الدفاع عنه كتابة وتنظيرا في كتابه " البيان والتبيين " وفي مؤلّفاته الأخرى أيضا، وهو ما يتجلّى في كتابات شريحة هامة من الشباب العربي بما في ذلك المتعلّمون منهم والحاصلون على شهادات جامعيّة ممّن يكتبون في الأنترنات والفايسبوك وعند إرسالهم للإرساليات القصيرة على الهواتف الجوّالة في لغة عربيّة مفكّكة ومستهجنة يُصرّف فيها الفعل العربي بقواعد الصرف في اللّغات الأجنبيّة مثل الفرنسيّة والانجليزيّة[١٩] وفي لهجات محلّية كما هو الشأن كذلك في ما يُسمّى بـ« الأرابيزي » (Arabizi)، وهي كتابة بالعربيّة تعتمد الحروف اللّاتينيّة – وهو عين المفارقة – وباعتماد الأرقام إذا ما تعذّر وجود الحرف العربي في الألفبائيّة اللّاتينيّة مثل رقم ٣ لحرف العين و7 لحرف الحاء[٢٠] وهي ظاهرة من جملة ظواهر أخرى جعلت المجلس الدولي للّغة العربيّة ينظّم في دبي بين ٧ و١٠ مايو ٢٠١٣ مؤتمرا بعنوان " العربيّة في خطر " داقين ناقوسه ومجمعين في خلاصة الندوة أنّ

---

(18) Janine et Dominique Sourdel, « Ecriture islamique », in *Dictionnaire historique de l'Islam*, Paris, PUF, «Quadrige », 2004, pp. 260 – 261

(١٩) حول دور الانتروبولوجيا في دراسة الظواهر المستحدثة التي أنتجتها العولمة واللامفكّر فيها إلى حدّ الآن على أحسن ما ينبغي:

Marc Augé, *Non-lieux, Introduction à une anthropologie de la surmodernité*, Paris, éditions du Seuil, 1992, p. 101.

(20) Heikel Ben Mustapha, *le Code switching observé chez les Diplômés de L'université en Tunisie, Etude linguistique et sociolinguistique* (thèse de Doctorat), Université de la Manouba, Tunisie, 2007, p.205.

هذه اللّغة مهدّدة بالانقراض إذا ما تواصل الأمر على هذا النحو دون اللّجوء إلى وسائل دفاعيّة مجدية.

وفي الحقيقة فإنّ العربيّة أصبحت في خطر منذ مدّة وحتّى قبل الكتابة الالكترونيّة التي لا شكّ أنّها زادت الطين بلّة، على الأقلّ فيما يتعلّق بكتابة الشريحة الغالبة من الشباب العربي الذين يسكنهم هاجس تبليغ المعنى على الشكل والمضمون على اللّغة بما في ذلك لغتهم. فصناعة الكتابة كما يسميّها الجاحظ تشهد أزمة حقيقيّة في العالم العربي نتيجة أزمة المطالعة وفي مجتمع من أكثر المجتمعات عزوفا عن الكتاب رغم أنّة ينتمي إلى حضارة كتاب بأتمّ معنى الكلمة، فمن يحذقون صناعة الكتابة اليوم في العالم العربي في تناقص من يوم إلى آخر ودروس الجاحظ في هذا المجال هي من الدروس الخالدة ليس للكتابة العربيّة فقط، وإنْ كانت هي غايته وإنّما كذلك لفعل الكتابة الإنساني في مظهره الإنشائي الذي يحقّق ما سمّاه رولان بارت " متعة النصّ " وهو فعل من الصعب أن نفصل فيه الدال عن المدلول، الشكل والمضمون والتي لا بدّ من التفكير بعمق فيما إذا كانت الكتابة في طورها الجديد قادرة على تحقيقها على الأقلّ بطريقة أخرى مختلفة عن الكتابة التقليديّة وهو أمر من الصعب الجزم فيه في مثل هذا المقال والذي لا بدّ أن يتجنّد له الدارسون من لسانيين وعلماء نفس وتربية وأنتروبولوجيين وفلاسفة ومختصّين في الجماليات الخطّية والأدبيّة وغيرهم للنظر فيه[٢١] .

إنّ فعل الكتابة هو صنعة ولهذه الصنعة نواميسها وضوابطها ومنْ لا يحذقها ولا يلتزم بها فهو يشوّه هذا الفعل ويجرّده من أنطولوجيته باعتباره فعل إنشاء وتعمير للكون. يقول الجاحظ: " وشرّ البلغاء من هيّأ رسم المعنى قبل أن يهيّئ المعنى، عشقا لذلك اللّفظ وشغفا بذلك الاسم حتّى صار يُجرّ إليه المعنى جرّا ويُلزقه به إلزاقا حتّى كأنّ الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسما غيره ومنعَه الإفصاح عنه إلّا به[٢٢].

إنّ أهمّ مبدأ في الكتابة هو تهيئة المعنى قبل تهيئة رسمه، غير أنّ كتابات عامة الناس التي تنتشر بكثافة في الفضاء الافتراضي هي في معظمها على العكس من ذلك تهيّئ رسم المعنى قبل تهيئة المعنى في حين أنّ الكتابة كما يعرّفها الجاحظ تعريفا آخر بليغ يختزلها في كلمتين " وإنّما هي رياضة وسياسة "[٢٣] قبل أن يفصّل القول ناصحا نصوحا لكلّ من يروم كتابة جديرة بأن تسمّى كذلك ولكلّ من يطرح اليوم على نفسه في العالم العربي على

---

[٢١] حول دور الأنتروبولوجيا في دراسة الظواهر المستحدثة التي أنتجتها العولمة واللامفكّر فيها إلى حدّ الآن على أحسن ما ينبغي.

Marc Augé, *Non-lieux, Introduction à une anthropologie de la surmodernité,* p. 101.

[٢٢] الجاحظ، رسالة المعلّمين في رسائل الجاحظ الأدبية، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ص.٢٠٦.

[٢٣] المصدر نفسه، ص.٢٠٧

غرار جماعة دبي الدفاع عن الكتابة باللّغة العربيّة في عنوان مماثل يدقّ الناقوس " الكتابة بالعربيّة ولعلّها في كلّ اللّغات في خطر"، قائلا " ثمّ خذ تعليم صناعة الكتابة بتعريف حجج الكتّاب وتخلّصهم باللّفظ السهل القريب المأخذ إلى المعنى الغامض وأذِقْهُ حلاوة الاختصار، وراحة الكفاية وحذّره التكلّف واستكراه العبارة فإنّ أكرم ذلك كلّه ما كان إفهاما للسامع ولا يُحْوِج إلى التأويل والتعقّب ويكون مقصورا على معناه لا مقصّرا عنه ولا فاضلا عليه. فاختر من المعاني ما لم يكن مستورا باللّفظ المتعقّد، مغرقا في الإكثار والتكلّف، فما أكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع براعة اللّفظ وغموضه على السامع بعد أن يتّسق له القول، وما زال المعنى محجوبا لم تكشف عنه العبارة. فالمعنى بعدُ مقيمُ على استخفائه وصارت العبارة لغوا وظرفا خاليا... وبالجملة إنّ لكل معنى شريف أو وضيع، هزل أو جدّ وحزم أو إضاعة ضربا من اللّفظ هو حقّه وحظّه ونصيبه الذي لا ينبغي أن يجاوزه أو يقصّر دونه "[٢٤].

لا يسمح السياق هنا بمزيد عرض نظريّة الجاحظ في صناعة الكتابة وفنونها وتحليلها لأنّ ذلك يتطلّب كتابا كاملا يشمل سائر رسائله ومؤلّفاته، فهو دون مبالغة أحد أهمّ منظّري الكتابة في تاريخ الإنسانيّة وقد سبق بارت في التنظير لمتعة النصّ بقرون، ولكن لا بدّ من الإشارة إلى أنّه من زاوية الاختصاص الانتروبولوجي الذي يعتبر الكتابة كما يؤكّد مارك أوجيه (Marc Augé) " أنّها من صميم انشغالاته وليس من هامشه ومن توابعه"[٢٥] تُعدّ كتاباته من أهمّ المصادر التي يمكن الاستناد إليها ليس فقط للتأريخ للكتابة ومستلزماتها التقنيّة في فترة من فترات التاريخ البشري التي كان العرب والمسلمون فيها يقودون قاطرة التقدّم البشريّ في شتّى المعارف وإنّما كذلك بالنسبة إلي اللذين يحذّرون اليوم من عولمة الكتابة ونقلها تماما إلى الفضاء الالكتروني وتبعا لذلك القطع نهائيّا مع الكتابة التقليديّة بحبرها وقلمها وورقها، ما يعني سلخ الإنسانيّة عن تجربة راكمتها طيلة قرون ورعتها شيئا فشيئا عبر العصور والأهمّ من ذلك استودعتها أحلامها وأمالها ومقدّساتها.

٣-الكتابة بين الجلد والورق من منظور جاحظي:

نقرأ في رسالة " الجد والهزل " للجاحظ التي كتبها في شيخوخته ردّا على من يعيب عليه تفضيله الورق على الجلود في الكتابة وهو ردّ لا يؤرّخ فقط لتطوّر الكتابة ووسائلها عند العرب في عصره خاصة في الانتقال من الكتابة على الجلد إلى الكتابة على الورق المصنّع رغم تواجدهما مع بعضهما البعض وميل الجاحظ إلى الورق وهو المولع بطبعه بالتجديد في

---

[٢٤] المصدر نفسه، ص.٢٠٦-٢٠٧

[٢٥] حول فعل الكتابة من الناحية الانتروبولوجية انظر مارك أوجيه، مهنة الانتروبولوجي، (ترجمة محمد الجويلي)، وزارة التعليم العالي، الملحقيّة الثقافية السعودية في فرنسا – بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١٠، ص ٤٥.

كلّ شيء وهو انتقال يشبه إلى حدّ بعيد من حيث قيمته التاريخيّة والنوعيّة الانتقال الذي نعيشه اليوم من الكتابة الورقيّة إلى الكتابة الالكترونيّة.

يسوق الجاحظ في هذا الردّ حجج منْ يعيب عليه ميله إلى الورق وهجره الكتابة على الجلد ويحاول دحضها وفي كلا الرأيين يقدّم الجاحظ وعلى لسان خصمه حججا تقنيّة وطبيعيّة وكيميائيّة في فضائل الجلد والورق ومساوئهما ممّا لا يعرفه إلّا خبير مختصّ في الجلد والورق على حدّ السواء والقارئ في حيرة بينهما أيّهما أفضل حقّا للكتابة الجلد أم الورق؟ لهذا الردّ قيمة تراثيّة هامة كذلك لدى المهتمّين بتاريخ الكتابة وبحفظ التراث المادي البشري وهو لا يقلّ قيمة في نظرنا عمّا يُحفظ في المتاحف العالميّة من الكتب المسفّرة والمجلّدة الموروثة عن العصور القديمة. يقول الجاحظ مخاطبا من يلومه على تفضيل الورق على الجلد في مستهلّ ردّه قبل أن ينصرف إلى محاججته ونقد أقواله ودحضها " وما عليك أن تكون كتبي كلّها من الورق الصينيّ، ومن الكاغذ الخراسانيّ؟ ! قلْ لي: لِمَ زيّنت النّسخ في الجلود ولما حثثتني على الأدَم وأنت تعلم أنّ الجلود جافية الحجم، ثقيلة الوزن، إنْ أصابها الماء بَطلت وإنْ كان يوم لَثَق استرخت. ولو لم يكن فيها إلّا أنّها تبغّض إلى أربابها نزول الغيث وتكرّهِ إلى مالكها الحيا، لكان في ذلك ما كفى ومنع منها. قد علمتَ أنّ الورّاق لا يخطّ في تلك الأيّام سطرا ولا يقطع فيها جلّدا – وإنْ نَدِيت – فضلا على أن تُمْطَر، وفضلا على أن تَغرق – استرسلت فامتدّت. ومتى جفّت لم تعُد إلى حالها إلّا مع تقبّض شديد وتشنّج قبيح وهي أنتن ريحا وأكثر ثمنا وأحمل للغشّ: يُغَشّ الكوفيّ بالواسطيّ والواسطيّ بالبصري، وتعتّق لكي يذهب ريحها وينجاب شعرها وهي أكثر عُقدا وعُجَرا وأكثر خباطا وأقساطا والصفر ' إليها أسرع وسرعة انسحاق الخطّ فيها أعمّ. ولو أراد صاحب علم أن يحمل منها قَدر ما يكفيه في سَفَرِه لما كفاه حِمْلُ بعير. ولو أراد مثل ذلك من القُطْنيّ لكفاه ما يحمل مع زاده "[٢٦].

لهذه الفقرة كما قلت قيمة وثائقيّة وتاريخيّة واتنوغرافية لمن يهدف إلى معرفة تاريخ الكتابة عند العرب لعشرة قرون مضت فيما يتعلّق بعنصر أساس من أدواتها: الجلد والورق. من خلال هذه الفقرة نعلم أنّ سوق الجلد والورق لدى العرب في هذه الفترة كانت مزدهرة فعلاوة على وجود الورق الصيني والكاغد الخراساني والورق القُطْنيّ كانت تُباع فيها أنواع من الجلود المعدّة للكتابة، كوفيّة وبصريّة وواسطيّة نسبة إلى مدينة واسط لا يعلمنا الجاحظ بأجودها ويكتفي بالإشارة إلى أنّ بائعيها قد يلجئون إلى الغشّ بتعمّد عرض أحدها باعتبارها الآخر " يُغشّ الكوفيّ بالواسطي والواسطيّ بالبصْريّ " كما نعلم وهذا ما نفهمه من خلال التأويل أنّهم كانوا في هذه الفترة في خضمّ العبور من مرحلة الجلد إلى مرحلة الورق أي إلى

[٢٦] الجاحظ، رسالة الجدّ والهزل، في رسائل الجاحظ الأدبيّة، بيروت، دار مكتبة الهلال ،١٩٨٧، ص٣٤١

الأفضل والأكثر تقدّما من الناحية التقنيّة لما فيه خير الكتابة والفاعلين فيها كتّابا وقرّاء ولذلك نفهم السبب الذي جعل الجاحظ لا يترك حجّة إلّا واستعملها لبيان مساوئ الجلد والكتابة عليه وإبراز أفضليّة الورق عليه من كلّ النواحي. حجج الجاحظ متنوّعة وتتوزّع بين الكمّيّ والنوعيّ. الكتابة على الجلد تثقل على صاحبها لأنّ الجلد جافي الحجم وثقيل الوزن ويمثّل عبئا ثقيلا على " صاحب العلم " كاتبا أو قارئا، لا سيما في سفره فإذا أراد أن يحمل ما يكفيه من الكتب المنسوخة على الجلد لما كفاه حمل بعير علاوة على أنّها كما يضيف لاحقا حجّة طيّبة صحّية " تثقِل الأيدي وتُحطّم الصدور وتقوّس الظهور وتُعمي الأبصار "[٢٧] وهي كذلك شديدة التأثّر سلبيا بالعوامل الطبيعيّة وخاصة الرطوبة لكونها تندى بسرعة فما بالك إذا هطل عليها المطر أو غرقت أي بُلّت على آخرها بالماء فهي تسترسل وتمتدّ فيكبر حجمها ويزيد في وزنها الثقيل أصلا وحتّى إذا ما جفّت فلن تعود إلى الحالة التي كانت عليها للانقباض الشديد الذي يعتريها وللتشنّج أي التجعّد والتيبّس القبيح كما يصفه الجاحظ الذي يصيبها، هذا علاوة على رائحتها النتنة وغلاء ثمنها وسرعة اصفرارها كما سرعة انسحاق أي انمحاء الخطّ فيها مقارنة بالورق أمّا أخطر مساوئها – وهنا ينتقل الجاحظ من الكمّي إلى النوعي ومن المادّي الصرف إلى الثقافي الرّمزي [٢٨] فهو تبغيضها صاحبها نزول الغيث والحيَا وهي كلمة مكتنزة الدلالات[٢٩] تعني بالإضافة إلى المطر ذاته الخصب والنبات والحشة (مفرد حشيش) أي الحيا بل قل الحياة كلّها لكونها بالطبع تفسد كتبه المجلّدة، ما يجعله نصيرا للجدب والقحط وعدوّا للياب والخصب ونابتة غريبة في حضارة ليس ثمّة ما تنشده وتتغنّى به وتحتفل به أكثر من الكتاب والمطر معا.

سنعود إلى ارتباط الكتابة بالمطر وبمعاني الخصوبة عند العرب ولكن قبل ذلك لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الجاحظ قد أورد حجج خصمه، مُفضِّلا الجلد على الورق بأمانة على ما يبدو متسلّحا بقوّة المنطق والاستدلال كما لو أنّه يدافع عن رأيه وليس رأي خصمه، ممّا يجعلنا في حيرة من أمرنا أيّهما أفضل للكتابة وللكتّاب والقرّاء الجلد أم الورق؟ " وقلتَ لي: "عليك بها فإنّها أحمل للحكّ والتغيير، وأبْقى على تعاور العاريّة وعلى تقليب الأيدي، ولرديدها ثمن، ولطرسها مرجوع ،و المُعاد منها ينوب عن الجُدُد وليس لدفاتر القُطْنيّ أثمان في السوق وإنْ كان فيها كلّ حديث طريف، ولطْف مليح، وعلْم نفيس. ولوْ عرضْت عليهم عِدْلها في عدد الورق جلودا ثمّ كان فيها كلّ شعر بارد وكلّ حديث غثّ، لكانت أثمن،

---

[٢٧] المصدر نفسه، ص ٣٤٢

[٢٨] حول أهمية الرمز في الثقافة انظر:

Ernest Jones, *Théorie et Pratique de la psychanalyse*, (traduit de l'Anglais par Annette Stronk), Paris, Payot et Rivages, 1967, pp. 90-91

[٢٩] انظر: تعريف كلمة " حيا " في منجد الطلاب، (تحقيق إفرام البستاني)، الطبعة ٤٩، بيروت، دار المشرق، ٢٠٠٢، ص ١٥١

ولكانوا إليها أسرع. وقلْتَ: وعلى الجلود يعتمد في حساب الدواوين، وفي الصِّكاك والعهود وفي الشروط وصُور العقارات وفيها تكون نَموذجات النقوش، ومنها تكون خرائط البُرُد [...] وزعمْتَ أنّ الأَرضة إلى الكاغد أسرع، وأنكرت أن تكون الفأرة إلى الجلود أسرع، بل زعمت أنّها إلى الكاغد أسرع وله أفسد، فكنتَ سبب البليّة في تحويل الدفاتر الخِفاف في المَحْمل، إلى المصاحف التي تثقل الأيدي..."[٣٠] الكتابة على الجلد على عكس ما اعتقدنا بتأثير من الجاحظ نفسه لها مزاياها، فالكتب المجلّدة مقارنة بالورقيّة هي أحمل على الحكّ والتغيير وأقوى على الصمود إذا ما وقع استعمالها بكثرة وكثر قرّاؤها وتقلّبت بين أيديهم، لاسيما إذا كانت كثيرة التداول والإعارة " تعاور العاريّة "من صاحبها لغيره من القرّاء ثمّ أنّها أقلّ كلفة وجلدها أكثر فائدة لكونه قابلا للطرس على عكس الورق غير القابل لذلك أي أن يُمحى المكتوب عليه إذا لم تعد هناك حاجة إليه لإعادة الكتابة عليه والمُعاد منها ينوب عن الجديد الذي لا حاجة ولا داعي إليه، ما يجعل صاحبها غير مضطرّ لإنفاق ماله عبثا وخسرانا وهو ما لا يمكن أن يوفّره الورق، علاوة على أنّه إذا رغب في بيعها فإنّ ثمنها أغلى من الدفاتر الورقيّة القطنيّة في السوق. فالمستهلكون للكتب لا يهمّهم محتوى ما في هذه الدفاتر من الأحاديث العذبة والطرائف المليحة والعلوم النفيسة، ما يهمّهم هو الشكل وليس المضمون، الوعاء وليس المحتوى، الجلد حتّى ولو كان المكتوب فيه "شعرا باردا وحديثا غثّا "، فلو عُرِض عليهم نفس العدد ورقا على أهميّة ما كُتِب فيه جلدا على سخافة ما يتضمّنه لكانوا على الجلد أسرع.

يستعمل خصم الجاحظ حجّة السوق الكمّية، حجّة العرض والطلب والربح والخسارة في انتصاره للجلد على حساب الورق. وبالطبع فإنّ مقاييس السوق والاستهلاك ليست دائما بحجّة ولكن لا بدّ من التساؤل: لماذا يفضّل المستهلكون في عصر الجاحظ المكتوب على الجلد على المكتوب على الورق، بل قل لماذا يفضّلون الجلد على الورق ضاربين بعرض الحائط وغير مكترثين بطبيعة ما كُتب فيهما غثّا أو سمينا، صالحا أو طالحا، مفيدا أوغير مفيد؟ لعلّها العادة التي ورثوها منذ أجيال وقرون. فالكتابة على الجلد قديمة وعلى الورق مستحدثة، والناس بقدر ما هم مولعون بالجديد، متشبّثون بالقديم الموروث عن الأسلاف. وما يقال عن المستهلكين في العصر العبّاسي، يُقال عن مستهلكي اليوم[٣١]، فبقدر اندفاعهم نحو الكتابة الالكترونيّة لما فيها من فوائد جمّة، لا نراهم إذا ما تعلّق الأمر بكتاب في

---

[٣٠] الجاحظ، رسالة الجدّ والهزل، ص ٣٤١-٣٤٢

[٣١] حول سلوك المستهلكين الذين قد يشترون ما لا ينفعهم في المجتمعات المعاصرة أو القديمة انظر:
Valérie Sacriste, « Communication publicitaire et consommation d'objets dans la société moderne », Paris, PUF, *Cahiers internationaux de sociologie*, n° 112, 2002/1, pp. 123-124

نسختين واحدة ورقيّة والأخرى الكترونيّة إلّا وهم على الورقيّة أسرع. ثمّة سبب ثان، فالسلوك الاستهلاكي كثيرا ما يخضع لعامل الإشهار مهما كانت طبيعته حتّى ولو كان بمجرّد الإشاعة المتداولة بين الناس، فهو سلوك انفعالي يخضع لثنائيّة التأثير والاستجابة وليس لتحكيم العقل وطبيعة ما يقتنونه من السوق ومدى فائدته وجدواه[٣٢]. لقد خلنا ونحن نقرأ الجاحظ أنّ الورق بدأ يكتسح السوق وأصبح " الجلد منذ قرون، فإذا بنا نعدّل من رأينا لننتهي باستنتاج أنّهما يتعايشان مع بعضهما البعض، تعايش الجديد والقديم في كلّ العصور تماما مثلما تتعايش الكتابة الورقيّة مع الكتابة الالكترونيّة في عصرنا موضة الكتابة" في عصره يحتلّ الموقع الذي كان يحتلّه مازال للجلد وجاهته لدى العرب في المنتصف الأول للقرن الثالث للهجرة الموافق للمنتصف الأوّل للقرن التاسع ميلاديّا، خاصة وأنّنا نلاحظ من خلال شهادة الجاحظ نفسه أنّه معْتمَد رسميّا من الدولة والمصالح الإداريّة المهمّة الراجعة إليها أو الخاضعة لرقابتها في حساب الدواوين ولدى كتّاب الصكوك أي حافظي المصكوكات وما ضُرب من الدراهم والدنانير وكتابة العهود والعقود والمواثيق وفي الخرائط بما في ذلك خرائط العقارات المنظّمة للملكيّة.

وفي الحقيقة يظلّ القارئ غير المختصّ في الجلود والورق في حيرة لمّا يتعلّق الأمر بأيّهما عرضة أكثر من غيره لإفساد الحشرات والدود "الأرَضة" والفأرة وإلى أيّهما يكونان أسرع :هل الجلد كما يذهب الجاحظ أم الورق كما يذهب ابن الزيات . قد يكون الاثنان على نفس الدرجة في تعرّض كلاهما لإفساد الأرضة والفأرة وهكذا نكون قد توسّطنا الرّجلين ووقفنا بينهما في منزلة بين المنزلتين.

لا شكّ أنّ هذه المجادلة حول الجلد والورق وخصائص كلّ منهما وعن مدى أفضليّة الواحد منهما على الآخر تستمدّ قيمتها وحيويّتها من وجهة نظر انتروبولوجيّة ثقافيّة من كونها تؤرّخ للكتابة في مرحلة من مراحل تاريخها ليس عند العرب فقط وإنّما في كلّ الحضارات الكتابيّة التي عرفت الانتقال من الكتابة على الجلد إلى الكتابة على الورق قبل أن تعرف مع العولمة وما بعد الحداثة، وهو ما نعيش الآن في خضمّ الانتقال من الكتابة الورقيّة إلى الكتابة الالكترونية. إنّ مثل هذا الانتقال لا يحدث دون تأثيرات ثقافيّة واقتصاديّة عميقة على حياة الشعوب ونمط عيشها ورؤيتها للعالم، فالكتابة شديدة الارتباط ليس بالواقع التاريخي فقط، وإنّما كذلك بالمخيال البشري أي الطريقة التي تتمثّل بها جماعة بشريّة سواء كانت شعبا أو فئة مثل فئة الكتّاب ذاتها أو فئة القرّاء لفعل الكتابة نفسه ومن خلاله تتمثّل نفسها والآخرين والحياة برمّتها[٣٣]. ولعلّ أهمّ تمثّل للمخيال البشري للكتابة التقليديّة بأدواتها

---

[٣٢] انظر حول إقبال الناس على كتب لا قيمة أدبية وعلمية الدراسية القيّمة:
Robert Mondron, *La culture populaire aux 17 et 18ème siècles*, Paris stock, 1964

[٣٣] حول مفهوم المخيال وعلاقته بالكتابة بما في ذلك صلة الكتابة بالحقيقة، انظر:

المعروفة من ورق وحبر وقلم هو ما أنتجه العرب في تصوّرهم للكتابة باعتبارها فعل إخصاب وتوليد وضمان ديمومة النوع الإنساني وتواصله في الكون. إنّ النظر في بعض النصوص العربيّة القديمة يدعّم ما ذهبنا إليه سواء تعلّق الأمر بفعل الكتابة في مفهومها المجرّد أي الكتابة بمعزل عن مضمونها ومنظورا إليها فى مستواها المادي والتقني أو في مفهومها الإنشائي والإبداعي.

٤-الكتابة وأدواتها في المتخيّل العربي: فعل إنماء وخصوبة:

يكفي أن نتأمّل في " مادة حبر " في لسان العرب حتّى نتبيّن ما ذهبنا إليه فالعرب لا يكادون يستعملون مادة "حبر" ومشتقّاتها إلّا للدلالة على كلّ ما هو إيجابيّ ، فعلاوة على معاني الحبر، أي المداد الذي يُكتب به والوشي على الثياب والأثر على الجلد من وشم وغيره والأثر على كلّ شي ء يطلقون الحبر على العالِم والرجل الصالح والرجل الناعم وعلى السرور أي الحبور وعلى النعمة والهناء والإكرام والتحبير على حسن الخطّ والمنطق وتحسين الصوت[٣٤] ثمّ يتدرّجون شيئا فشيئا في استعمال هذا الجذر ومشتقّاته إلى أن يصلوا إلى ربطه مباشرة بالخصوبة والنّماء. يقول ابن منظور " والحبير هو السحاب وقيل الحبير من السحاب الذي ترى فيه كالتنمير من كثرة مائه "[٣٥] ثمّ يضيف " وأرض محبار: سريعة النبات حسنته كثيرة الكلأ [...] الأرض السريعة النبات السهلة الدفئة التي يبطون الأرض وسرارتها وأراضتها، فتلك المحابير وحبِرَت الأرض وأحبرتْ [أي أنْبتت] " قبل أن ينتقل معرّفا المحبرة بقوله " ويقال للآنية التي يجعل فيها الحبر من خزف كان أو من قوارير: محبرة ومحبرة كما يُقال مزرعة ومقبرة ومخبزة "[٣٦].

إنّ خير من يهدينا كذلك إلى ربط الكتابة عند العرب بدلالات الخصوبة والنماء هو تفسيرهم للأحلام. تفسير تناقلته الأجيال مشافهة جيلا بعد جيل ونسبته إلى محمد بن سيرين وإنْ كان في الحقيقة إنْ لم يكن كلّه ففي معظمه من إنتاج المخيال الجمعي ومن إبداع شعبي جماعي تراكم طيلة قرون[٣٧]. ما يهمّنا في هذا التفسير الذي هو في الحقيقة تأويل

Paul Veyne, *Les Grecs ont-ils cru à leurs mythes* ?, Paris, Seuil, 1983, p.28
Jacques le Goff*, L'imaginaire médiéval,* Paris, Gallimard, 1985, p 6.
Patlagean Evelyne, « L'histoire de L'Imaginaire » in J. Le Goff, (sous la direction de) *La nouvelle histoire*, Paris, Retz, 1978, p 248.

[٣٤] ابن منظور، لسان العرب، إعداد وتصنيف يوسف الخيّاط، بيروت، دار لسان العرب، المجلد الأوّل، ص ٥٤٨

[٣٥] المصدر نفسه، المجلد نفسه، ص ٥٤٩

[٣٦] المصدر نفسه، ص ٥٤٩-٥٥٠

انظر حول هذه المسألة:

[37] Taoufik Fahd, art. « Ibn Sirin », in *Encyclopédie de L'Islam*, Nouvelle Edition, Leyde: E.J. Brill et Paris G-P. Maisonneuve – Larose, 1975, P. 972.

وحول تأويل الأحلام في الثقافة الشعبية الذي هو تأويل للواقع أكثر ممّا هو، في الحقيقة تأويل للحلم وكذلك حول صلة الحلم بالمخيال الإسلامي، انظر:

للواقع، هنا واقع الكتابة وتمثّلها الجماعي أكثر ممّا هو تأويل للحلم، هو تفسير رؤية الكتابة وأدواتها في المنام " القلم والدواة والمداد والورق". ومن البديهي أنّنا سنقوم بتأويل الكتابة وأدواتها في الأحلام في مرحلة أولى وربطها بما عرضنا له في تعريف ابن منظور لمادة "حبر" في لسان العرب، لنذهب أعمق ما يمكن في فهم فعل الكتابة عند العرب باعتباره ليس تعميرا للورق فقط وإنّما تعميرا للكون برمّته وذلك بالبذر فيه وإنمائه. فرِؤية القلم في المنام حسب هذا التفسير "يدلّ على ما يذكر الإنسان به كالولد الذكر وربّما دلّ على الذكر والمداد نطفته وما يكتب فيه منكوحة وربّما دلّ على السكة والأصابع أزواجه ومداده بذرها [...] وقِيل القلم ولد الكاتب ورأى رجل كأنّه نال قلما فقصّ رؤياه على معبر فقِيل له يُولّد لك غلام يتعلّم علما حسنا"[٣٨]، أمّا الدواة فهي " خادمة ومنفعة من قِبل امرأة ، فمَن رأى أنّه يكتب من دواة اشترى خادمة ووطئها [...] وقال أكثر المعبرين أنّ الدواة زوجة ومنكوح وكذلك المحبرة، إلّا أنّها بِكْر"[٣٩] والصحيفة " مَن نظر إليها ولم يقرأ ما فيها فو ميراث يناله [...] ومَن رأى أنّه وهبت له صحيفة، فوجد فيها رقعة ملفوفة فهي جارية وبها حبل "[٤٠] وأخيرا يذهب هذا التفسير إلى تأويل رؤية الكاتب نفسه في الأحلام والذي يعتبره أنّه " ذو حيلة وصناعة لطيفة مثل الإسكافيّ قلمه كالأشفى والإبرة والمداد كالشيء الذي يخرم به من خيوط وسيور وكالحجّام وقلمه مشرطته ومداده دمه وكالرقام والرفاه ونحوهما وربّما دلّ على الحرث، والقلم كالسكة والمداد كالبذر "[٤١].

ما يلفت الانتباه هو أنّ معاني الخصوبة والولادة والنماء وتجدّد الحياة في الطبيعة والنوع الإنساني المرتبطة بفعل الكتابة تستمدّ قيمتها من تحقيق الهناء والسعادة بتوفير الغذاء والذرّية ومدلولها من اعتبار الأرض والمرأة وجهين لحقيقة واحدة[٤٢] وحرثهما بل الكتابة فيهما

Barbara Tedlock, « Dreaming and dream research », in *Dreaming*, New Mexico, School of American Research, Advanced Seminar Series, Edited by Barbara Teldock, pp. 1-3

وانظر كذلك حول علاقة تفسير الأحلام بالواقع:

Ernest Jones, *Le Cauchemar* (Nightmre), traduit de L'anglais par Anonette S. Robert, Paris, Payot, 1973, pp.53-55

Janine Roy, « De la créativité au sens social à travers les rêves », in *Société française de Psychologie Adlérienne,* Bulletin n: 96, 2000, p.14, p.17

[٣٨] محمّد بن سيرين، تفسير الأحلام، القاهرة. المكتبة التوفيقية، (د.ت)، ص ٣٣٧-٣٣٨

[٣٩] المصدر نفسه: ص ٣٣٨

[٤٠] المصدر نفسه: ص ٣٣٩

[٤١] المصدر نفسه: ص ٣٤٠

[٤٢] إنّ المماثلة بين المرأة والأرض ليست خاصة بالعرب وحدهم وإنّما بشعوب أخرى تختلف عنهم لغة وثقافة ودينا، انظر حول هذه المسألة التي اهتمّ بها الانتروبولجيون على نحو خاص :

Marcel Mauss, *Œuvres 2,* Paris, Ed: Minuit, 1970, p.139

Bronislaw Malinowski, *Jardin de Corail* (The coral gardens), Paris, Maspero, 1974, p 93.98

هو شرط ضروريّ لخصوبتهما وولادتهما وتبعا لذلك تحقيق زينة الحياة الدنيا. فكلّ الأدوات المستعملة في الكتابة هي في تشكّلها الرمزي[٤٣] وفي تمثّلات المخيال الجماعي لها أدوات لإخصاب الأرض ولإخصاب المرأة على حدّ السواء. فلتكون الأرض محبارا أي سريعة النبات كثيرة الكلإ ومحبرة، بمعنى مزرعة أو (حتّى مخبزة بطريقة غير مباشرة، بمعنى توفّر الخبز وهو مادة العيش الأهمّ) لا بدّ من أن تُمطر بمطر غزير ينبئ به حبير أي سحاب كثير الماء كما لا بدّ من توفر السكة أي المحراث لفلحها تماما مثل المرأة التي إذا لم تكن صحيفة أي سبق وأنّها بها حبل لا بدّ لها حتّى تكون معطاءة وولّادة من كاتب حرّاث يعْمل قلمه– سكّته فيها ويمْطرها بمداده فهي في كل الحالات محبرة التي وإنْ دلّت على الخادمة عند بعض المعبرين، فإنّ أغلبهم يرى أنّها تدلّ على زوجة ومنكوح إلّا أنّها بكْر أي لم تُحرث ولم تلد بعد ولكنّها تعد مثل الأرض البكر المحبار إذا حبّرت أي بُذِرت على أحسن وجه أكثر من غيرها من النساء لفعل الولادة وتجديد الحياة ونمائها وتعميم الخير في الكون .

الكتابة إذن فعل توليدي بقدر ما هي فعل متعة لا يمكن أن نفصل بينهما وارتباطهما هو مثل ارتباط ظاهر الورقة بقفاها. وإذا كان السياق لا يسمح بإجراء مقارنة بين ما وصل إليه رولان بارت وهو ينظّر للكتابة تحت تأثير التحليل النفسي الحديث في كتابه " متعة النصّ" وهذه النصوص التراثيّة العربيّة القديمة، فإنّه لا بدّ من الإشارة إلى أنّ ما ورد في كتابه ومازال يملأ الدنيا ويشغل الناس باعتباره عين الجدّة والابتكار والحداثة[٤٤] في فهم فعل الكتابة بأدواته التقليديّة بوصفه شبيها بالفعل الجنسي الذكوري القلم أداته وسيلان الحبر مصدر لذّته قد سبقته إليه هذه النصوص العربيّة، بل أكثرها شعبيّة ونتاجا تبعا لذلك مثلها مثل النصوص الفلكلوريّة للّاوعي الجماعي وأبعدها عن تنظير الخاصّة العالِمة[٤٥]. وفي الحقيقة فإنّ اعتبار فعل الكتابة بوصفه فعلا توليديّا وإخصابيّا في المقام الأوّل هو ما تجمع

Luc Racine, « La terre - mère et les mères végétales en Océanie et en Asie du Sud-Est: Symbolisme et analogie », in Revue *Ethnographie*. n° 98-99, Paris, Société d'ethnographie, 1986, pp.27-50

[٤٣] وللرموز (symboles) في الأحلام انظر:

Gustave Jung, *Essai d'exploration de l'Inconscient*, (traduit de l'allemand par Laure Deutshmeister), Denoél, 1964, p.165

Didier Anzieu, *Une Peau pour la Pensée*, entretiens avec Gilbert Tarrab, Paris, Ed Apsygée, 1991, p 40.

Ernest Jones, « psychonalysis and Folklore », in *The study of Folklore*, New Jersey, ed Prince Hall, 1965, p. 95

[٤٤] انظر حول هذه المسألة على سبيل المثال:

Qian Han, « Un Roland Barthes entre le Texte et L'œuvre « in *Synergies*, la Chine, n° 5, 2010, pp 189-190

[٤٥] انظر حول هذه المسألة وشيوعها في الفلكلور العالمي:

Ernest Jones, « Psychoanalysis and Folklore », in *The study of Folklore*, Ed. Alan Dundes (Englewood Cliffs, N.J., 1965). p.97

عليه الخاصة والعامة والثقافة الشفويّة الشعبيّة والثقافة العالِمة. وما يقوله الجاحظ فيما يلي خير ما يدعّم ما رأيناه في تفسير الأحلام، بل قل في تفسير الواقع إذا ما سمحنا لأنفسنا بتغيير عنوان هذا الكتاب بعد تأويل تأويله " وسماع الألفاظ ضارّ ونافع. فالوجه النافع [...] أن يختمر في صدره [أي الكاتب] فإذا طال مكثها تناكحت ثمّ تلاقحت فكانت نتيجتها أكرَم نتيجة وثمرتها أطيب ثَمَرة [...] وبين الشيء إذا عشُش في الصدر ثمّ باض ثمّ فرّخ ثمّ نهض وبين أن يكون الخاطر مختارا واللّفظ اعتسافا واغتصابا فرق بيّن"[٤٦] .

يتيح لنا الجاحظ وهو ينظّر لفعل الكتابة أن نذهب بالتحليل الأنتروبولوجي إلى أبعد مداه وهو ما يُعتبر أحد مظاهر عبقريّة هذا الكاتب وحداثته الدائمة[٤٧]. فالألفاظ النافعة الصالحة للكتابة المولّدة للعقول مثلها مثل البويضات الذكوريّة والأنثويّة التي إذا ما تهيّأت لها الظروف المناسبة للالتقاء والتناكح والتلاقح ووجدت رحما ملائما يحتضنها ويوفّر لها الإطار الطبيعي للنموّ على أحسن وجه قبل أن تعرف النور فهي ستنجب مولودا موفور الصحّة بهيّ الطلعة: كتابة مثمرة تنقل معرفة طيّبة وعلما يعود بالنفع على المجتمع ويساهم في ازدهاره. ولا يكتفي الجاحظ بهذه الصورة القائمة على الاستعارة التي يستقيها على الأرجح من معجم الولادة لدى الحيوان والإنسان على حدّ السواء، فيستعير صورة أخرى من معجم الخصوبة لدى الطيور، فيصير صدر الكاتب عشّا تعشّش فيه الطيور، طيور الإبداع فتبيض وتفرّخ الألفاظ قبل أن تستوي على قدميها وتنهض عصافير متحفّزة للطيران والتحليق بعيدا في سماء العلم والآفاق الرحبة للمعرفة.

أن يستعير الجاحظ الطير للكتابة، فهذه الاستعارة ليست من الصور التي يمكن للانتروبولوجي أن يمرّ عليها مرور الكرام. فعلاوة على أنّها تستمدّ مدلولها من معجم الخصوبة كما قلنا، الشيء الذي لا يمكن فهمه خارج سياق ثقافي ورؤية للعالم مسكونة بتعمير الكون وتجديد النوع ومقاومة الجدب والقحط، هذه الخصوبة التي أفضل ما يجسّدها على أحسن وجه في الكون هي الطيور والعصافير التي يقول فيها الجاحظ في رسالة أخرى "أنّ أقلّ الأعمار هي أعمارها، لكثرة سفادها [مقارنة بالبغال] الطويلة العمر لقلّة النَّزو لديها "[٤٨]، فإنّها تعود إلى ما للطير من قيمة في المخيال الإنساني برمّته في العصر الوسيط باعتباره أفضل من يعقد الصلة في الكائنات الحيّة بين الأرضي والسماوي[٤٩] وأحسن ما يترجم معنى الحرّية، حريّة الحركة والفعل التي تنشدها الكتابة العالمة التي تطارد المعرفة

---

[٤٦] الجاحظ، رسالة المعلّمين، في رسائل الجاحظ الأدبيّة، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٧، ص ٢٠٧.

[٤٧] الحداثة ليس مفهوما "كرونولجيا " ولا يحيل على التعاقب الزمني كمفهوم المعاصرة وإنّما يتجاوزه إلى كلّ فكر يحرّك فعل المعرفة حتّى ولو كان موروثا من الماضي.

[٤٨] الجاحظ، كتاب مفاخرة الجواري والغلمان في رسائل الجاحظ الأدبيّة، تحقيق على أبو ملحم، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٧، ص١٨٥

[49] انظر: Ernest Jones, *Le Cauchemar*, p 57.

وتحلّق نحوها مسافرة ولوكانت في الصين. ولا شكّ أنّ الكتابة العالمة مازالت تنشد إلى اليوم هذه الغاية ولعلّ استعارة الطيران الجاحظيّة لها لا تجد لها تجسيدا وتحقيقا فعليّا يصل إلى أقصى ما يمكن أن يتخيّله الذهن البشري للطيران وسرعته، مثلما تجده في الكتابة الالكترونيّة، حيث يطير المكتوب في لمحة البرق ولكن مجرّدا من القلم والورق والحبر والدواة ليجوب أصقاع العالم كلّه وهو ما لا تقدر عليه أسرع الطيور والطائرات التي ابتكرها الإنسان لإخضاع المسافة والسرعة، المكان والزمان على حدّ السواء .

٥-الكتابة واللاّمكان من منظور أنتروبولوجيا ما بعد الحداثة(postmodernity)

إنّ فضاء الكتابة الالكترونيّة ليس المكان الذي عهدته الكتابة التقليديّة بملامحه المعهودة: الورق والمكتب والمكتبة ولا حتّى المطبعة الحديثة وإنّما اللاّمكان (Le Non– Lieu) الذي هو من إفرازات ما بعد الحداثة أو الحداثة المتضخّمة (surmodernité) حسب الأنتروبولوجي الفرنسي مارك أوجيه الذي بلور هذا المصطلح الذي نعته بالتجريبي (empirique) ونحته للتدليل من جملة ما يدلّ عليه[٥٠] على وسائل الاتصال الحديثة بشبكاتها الموصولة وغير الموصولة مثل الأنترنات التي تجعلها الكتابة اليوم مطيّة محبّذة لها. هكذا تقترن الكتابة باللاّمكان وتهمّ بهجر المكان شيئا فشيئا بعد أن خالت الإنسانيّة طويلا ومنذ فجر تاريخها إلى حدود العقدين الأخيرين من الزمان أنّ الكتابة والمكان متلازمان تلازما أبديّا. اللاّمكان حسب أوجيه على عكس المكان الذي يتحدّد من خلال ثلاثة ملامح أوّلها متعلّق بالهويّة أي أن يحيل على علاقة انتماء وثانيها بالعلاقة التي تصله بمَنْ يحلّ فيه أو بمنْ يربطه به رابط ما قريب أو بعيد أو عن قرب أو بعد وثالثهما المستوى التاريخي الذي يثير في المرء شعورا بانتساب قديم[٥١] فهو مجرّد من الهويّة والعلائقيّة والتاريخيّة فهو بمثابة الفراغ مقابل الامتلاء الذي يمثّله المكان[٥٢]. أنْ تقترن الكتابة بالفراغ وأن تجرّد تبعا لذلك من كلّ ما يحيل على الهويّة والعلائقيّة والانتساب التاريخي، وهو ما

---

[٥٠] انظر حول مفهوم اللاّمكان (non-lieu) الذي يشمل ما يسمّيه أوجيه اختصارا بالثلاثي الذي يبتدأ بحرف "كـ": (c): communication (اتصال) وconsommation (استهلاك) وcirculation (تنقّل)، هذا الثلاثي وليد العولمة وما بعد الحداثة متمثلا في الأنترنات والفايسبوك والتيلفيزيون الرقمي والهاتف الجوال إلى غير ذلك من جهة وفضاءات الاستهلاك الكبرى والأسواق العظمى في الغرب والمطارات الضخمة ومحطّات القطارات وأنفاق المترو في المدن الكبرى في العالم من جهة أخرى:

-Marc Augé, *Non Lieux ; Introduction à une anthropologie de la surmodernité*, Paris, éd du Seuil, 1992, pp.100-103

وانظر كذلك كتابه الآخر:

-Marc Augé, *Pourquoi vivons-nous* ?, Paris, A fayard, 2003, pp. 137-144

(51) Marc Augé, *Non-Lieux*, pp 100-102 et pp 134-140

-Marc Augé, *Pour une anthropologie de la mobilité*, Paris, Payot, 2009, pp 13-14

[٥٢] حول ثنائية الفارغ والملآن انظر:

-Marc Augé, *Pour quoi vivons-nous ?*, pp 153-156.

يتجلّى في أفضل صوره في فصلها عن القلم[٥٣] والورق والحبر بدرجة أقلّ أمر يثير مخاوف جديدة (Les nouvelles peurs) وهو عنوان كتاب لمارك أوجيه يشير فيه إلى عنف التكنولوجيات الحديثة وخطرها على حياة الإنسان. لا يثير مارك أوجيه في هذا الكتاب مخاطر الأنترنات وتهديداتها بما في ذلك للكتابة ويقتصر على النووي وعلى حوادث السيّارات واستعمال أرقى التكنولوجيات للتنصّت على الناس، ما يجعل الإنسانيّة كلّها تخضع للمراقبة [٥٤] ولكنّه يؤكّد على " أنّ كلّ ما يهدّد بإحداث التباس في أذهان الناس يبعث بطبعه على الانشغال [الخوف] "[٥٥]. إنّ الخوف كلّ الخوف لا يكمن فقط في أن نرى الكتابة تنتقل من المكان إلى اللّامكان أي من الفضاء الانتروبولوجي المرمّز[٥٦] كما يعرّف أوجيه المكان في تعريف وجيز ومكثّف إلى فضاء افتراضي عديم الرّمز وخاو من الهويّة والتاريخيّة وتبعا لذلك تفقد صلتها بالمخيال البشري باعتبارها فعل خصوبة ونماء وتعمير للكون لعلّ خير من عبّرت عنه أحسن تعبير الثقافة العربيّة كما رأينا وإنّما لأن الكتابة وهي تقترن بالأنترنات قد انفلتت من عقالها نهائيّا لتصير مصدرا حقيقيّا للخوف وتصبح على عكس رمزيّتها المكثّفة البنّاءة والإنمائيّة والتوليديّة فعلا تدميريّا يبثّ الكراهيّة بين الناس والأمم وصناعة للكذب دون حسيب ورقيب وفي سرعة البرق. هنا مثلها مثل ظواهر العولمة الأخرى تصبح مدعاة للقلق والخوف من أن تساهم بدلا من صناعة الحقيقة وتعمير الكون، تساهم على العكس من ذلك في الإعداد كما يقول أوجيه محذّرا للمشهد المريع (L'Apocalypse) لنهاية العالم [٥٧].

غير أنّ العيب ليس في الأنترنات وإنّما في هذه النوعيّة من الكتابة ذاتها، فالأنترنات تبثّ كذلك كتابة بنّاءة تعمّر ولا تدمّر توليديّة تنشد تجديد العالم وجعله أفضل وأجمل وهنا عين المفارقة. فالسرعة والشموليّة المكانيّة بمعنى السيطرة المطلقة على الزمان والمكان التي توفّرها الأنترنات للكتابة بمحتوياتها المتناقضة بين الهدم والبناء لا يبدّد هذه المخاوف بل لعلّه يزيدها حدّة لأنّ تجارب الإنسانيّة تؤكّد على أنّ الهدم أسهل بكثير من البناء. هنا تُطرح إشكاليّة متعلّقة بأخلاقيّة الكتابة وهي مسألة لطالما أسالت الكثير من الحبر في العلم والمعرفة عموما ومع ذلك فإنّ الأنتروبولجيين وعلماء النفس والمختصّين في علم الجمال والفلاسفة والمؤرّخين مدعوون أكثر لربّما من أيّ وقت مضى للتفكير في المسائل الجديدة التي تطرحها الكتابة في الحياة المعاصرة وذلك بالالتفات إلى ما راكمته الإنسانيّة من تجارب

---

[٥٣] للقلم علاقة وثيقة بثقافة الإنسانية بل بأُقدس ما عندها عقائدها الدينية. حول أهمية القلم في المقدّس تواتر ذكره في الكتب السماويّة وعلى وجه الخصوص في القرآن الكريم على سبيل الذكر لا الحصر في الآية الرابعة والأربعين من سورة آل عمران: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

[54] Marc Augé, *Les nouvelles Peurs*, Paris, éd Payot et rivages, 2013, pp 55-59

[55] Marc Augé, *Les nouvelles Peurs*, p 55

[56] Marc Augé, *Non-Lieux*, pp 104 – 105

[57] Marc Augé, *Les Nouvelles Peurs*, p 55

في الانشغال بالكتابة والتفكير فيها، فالالتفات إلى الوراء كثيرا ما يساعد على النظر إلى الأمام والمستقبل بطريقة أفضل .

إنّ اللّغة العربيّة أصبحت في خطر منذ مدّة. وحتّى قبل الكتابة الإلكترونيّة التي لا شكّ أنّها زادت الطين بلّة، على الأقلّ فيما يتعلّق بكتابة الشريحة الغالبة من الشباب العربي الذين يسكنهم هاجس تبليغ المعنى على الشكل والمضمون على اللّغة بما في ذلك لغتهم . فصناعة الكتابة كما يسميّها الجاحظ تشهد أزمة حقيقيّة في العالم العربي نتيجة أزمة المطالعة، وفي مجتمع من أكثر المجتمعات عزوفا عن الكتاب رغم أنّة ينتمي إلى حضارة كتاب بأتمّ معنى الكلمة، فمن يحذقون صناعة الكتابة اليوم في العالم العربي في تناقص من يوم إلى آخر ودروس الجاحظ في هذا المجال هي من الدروس الخالدة ليس للكتابة العربيّة فقط، –وإنْ كانت هي غايته– وإنّما كذلك لفعل الكتابة الإنساني في مظهره الإنشائي الذي يحقّق ما سمّاه رولان بارت " متعة النصّ "، وهو فعل من الصعب أن نفصل فيه الدال عن المدلول و الشكل عن المضمون . ولذلك وجب التفكير بعمق فيما إذا كانت الكتابة في طورها الجديد قادرة على تحقيقها على الأقلّ بطريقة أخرى مختلفة عن الكتابة التقليديّة .

لقد خلنا ونحن نقرأ الجاحظ أنّ الورق بدأ يكتسح السوق، فإذا بنا نعدّل من رأينا لننتهي باستنتاج أنّهما يتعايشان مع بعضهما البعض، تعايش الجديد والقديم في كلّ العصور تماما مثلما تتعايش الكتابة الورقيّة مع الكتابة الالكترونيّة في عصرنا . فلئن سلّمنا بأنّ موضة الكتابة الورقية في عصره تحتلّ موقع الصدارة،نظرا للأسباب التي ذكرناها من حجج الجاحظ، إلاّ أنّ وجاهة الجلد عند العرب ظلّت قائمة منذ المنتصف الأول للقرن الثالث للهجرة الموافق للمنتصف الأوّل للقرن التاسع ميلاديّا، خاصة وأنّنا نلاحظ من خلال شهادة الجاحظ نفسه أنّه معْتمَد رسميّا من الدولة والمصالح الإداريّة المهمّة الراجعة إليها أو الخاضعة لرقابتها في حساب الدواوين ولدى كتّاب الصكوك أي حافظي المصكوكات وما ضُرب من الدراهم والدنانير وكتابة العهود والعقود والمواثيق وفي الخرائط بما في ذلك خرائط العقارات المنظّمة للملكيّة.

وفي الحقيقة يظلّ القارئ غير المختصّ في الجلود والورق في حيرة لما يتعلّق الأمر بأيّهما عرضة أكثر من غيره للفساد والتحلّل . هل الجلد كما يذهب الجاحظ أم الورق كما يذهب ابن الزيات . قد يكون الاثنان على نفس الدرجة في تعرّض كلاهما لإفساد الأرضة والفأرة وهكذا نكون قد توسّطنا الرّجلين ووقفنا بينهما في منزلة بين المنزلتين.

لا شكّ أنّ هذه المجادلة حول الجلد والورق وخصائص كلّ منهما وعن مدى أفضليّة الواحد منهما على الآخر، ورصد درجات الثبات والتّحوّل بينهما صعبة الفصل لأنها تتعلّق بلإنسان وأهوائه وميولاته، لكنّها تستمدّ قيمتها وحيويّتها إذا ما أخضعناها للتدقيق والنظر

والتحليل الأنتروبولوجيّ الثقافيّ لكونها تؤرّخ للكتابة في مرحلة من مراحل تطوّرها وتغيرها بين الثبات والتّحوّل.

الخاتمة

لقد رصدنا في هذا البحث الكتابة على الورق قبل أن تعرف التغيّر الذي فرضته العولمة وما بعد الحداثة، وهو ما نعيشه الآن في خضمّ الانتقال من الكتابة الورقيّة إلى الكتابة الالكترونية. إنّ مثل هذا الانتقال لا يحدث دون تأثيرات ثقافيّة واقتصاديّة عميقة على حياة الشعوب ونمط عيشها ورؤيتها للعالم، فالكتابة شديدة الارتباط ليس بالواقع التاريخي فقط، وإنّما كذلك بالمخيال البشري. أي الطريقة التي تتمثّل بها جماعة بشريّة، سواء كانت شعبا أو فئة، الكتابة نفسها من خلال تمثّلها لنفسها وللحياة برمّتها[٥٨]. ولعلّ أهمّ تمثّل للمخيال البشري للكتابة التقليديّة بأدواتها المعروفة من ورق وحبر وقلم هو ما أنتجه العرب في تصوّرهم للكتابة باعتبارها فعل إخصاب وتوليد وضمان ديمومة للنوع الإنساني وتواصله في الكون. إنّ النظر في بعض النصوص العربيّة القديمة يدعّم ما ذهبنا إليه سواء تعلّق الأمر بفعل الكتابة في مفهومها المجرّد –أي الكتابة بمعزل عن مضمونها ومنظورا إليها في مستواها المادي والتقني– أو في مفهومها الإنشائي والإبداعي.

الكتابة إذن فعل توليدي بقدر ما هي فعل متعة. لا يمكن أن نفصل بينهما . وارتباطهما هو مثل ارتباط ظاهر الورقة بقفاها. فما وصل إليه رولان بارت وهو ينظّر للكتابة تحت تأثير التحليل النفسي الحديث في كتابه " متعة النصّ" ، ومازال يملأ الدنيا ويشغل الناس باعتباره عين الجدّة والابتكار والحداثة[٥٩] في فهم فعل الكتابة بأدواته التقليديّة بوصفه شبيها بالفعل الجنسي الذكوري بين القلم و أداته وسيلان الحبر، واعتباره مصدر لذّته قد سبقته إليه هذه النصوص العربيّة التراثية القديمة.

---

[٥٨] حول مفهوم المخيال وعلاقته بالكتابة بما في ذلك صلة الكتابة بالحقيقة، انظر:

Paul Veyne, *Les Grecs ont-ils cru à leurs mythes* ?, Paris, Seuil, 1983, p.28

Jacques le Goff*, L'imaginaire médiéval,* Paris, Gallimard, 1985, p 6.

Patlagean Evelyne, « L'histoire de L'Imaginaire » in J. Le Goff, (sous la direction de) *La nouvelle histoire*, Paris, Retz, 1978, p 248.

[٥٩] انظر حول هذه المسألة على سبيل المثال:

Qian Han, « Un Roland Barthes entre le Texte et L'œuvre « in *Synergies*, la Chine, n° 5, 2010, pp 189-190

قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

ابن منظور، **لسان العرب**، إعداد وتصنيف يوسف الخيّاط، بيروت، دار لسان العرب، المجلد الأوّل، (د. ت)

الجاحظ، رسائل **الجاحظ الأدبيّة**، بيروت، دار مكتبة الهلال، ١٩٨٧.

محمّد بن سيرين، **تفسير الأحلام**، القاهرة. المكتبة التوفيقية، (د.ت).

المراجع باللّغة العربيّة:

أوجيه مارك ، **مهنة الانتروبولوجي**، (ترجمة محمد الجويلي)، وزارة التعليم العالي، الملحقيّة الثقافية السعودية في فرنسا – بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١٠.

التوحيدي أبو حيان، **الإمتاع والمؤانسة**، الجزء الأوّل، (تصحيح وشرح أحمد أمين وأحمد الزين)، بيروت–صيدا، المكتبة العصريّة، (د.ت)

الجاحظ:

رسائل الجاحظ السياسية، تقديم وشرح علي أبو ملحم، بيروت، دار مكتبة الهلال، ١٩٨٧.

كتاب مفاخرة الجواري والغلمان في **رسائل الجاحظ الأدبيّة**، تحقيق على أبو ملحم، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٧.

الرّاشدي محمد: "الوجوه التعبيرية في الكتابة الالكترونية"، **ينبع، الثقافة والأدب**، ملتقى شذرات عربية: www.shatharat .net

منجد الطلاب، (تحقيق إفرام البستاني)، الطبعة ٤٩، بيروت، دار المشرق، ٢٠٠٢.

المراجع باللّغة الأجنبيّة:

Anzieu Didier, *Une Peau pour la Pensée*, entretiens avec Gilbert Tarrab, Paris, Ed Apsygée, 1991.

Augé Marc, Les nouvelles Peurs, Paris, éd Payot et rivages, 2013, pp 55-59

Augé Marc, Non-lieux, Introduction à une anthropologie de la surmodernité, Paris, éditions du Seuil, 1992, p. 101 .

Augé Marc, *Où est passé L'Avenir*, Paris, Editions du Seuil, 2011.

Augé Marc, *Pour quoi vivons-nous ?*, Paris, A fayard, 2003.

Augé Marc, *Pour une anthropologie de la mobilité*, Paris, Payot, 2009, pp 13-14

Barthes Roland, *Le Plaisir du texte*, Paris, éd du Seuil, 1973.

Ben Mustapha Heikel, *Le Code-switching observé chez les Diplômés de L'université en Tunisie, Etude linguistique et sociolinguistique*, (thèse de Doctorat), Université de la Manouba, Tunisie, 2007.

Chénetien Marc, *Sgraffites, Encres et sanguines*, Paris, Ed. ENS, Rue d'ULM, 1994.

Djabbari Ali, « La Déformation professionnelle », in *Cahiers de sociologie du travail*, Tunis, ISFC - IBLA, n°2, 1961, p .5

Ernest Jones, « Psychoanalysis and Folklore », in *The study of Folklore*, Ed. Alan Dundes (Englewood Cliffs, N.J., 1965). p.٩5-97

Ernest Jones, *Le Cauchemar* (Nightmre), traduit de L'anglais par Anonette S. Robert, Paris, Payot, 1973.

Ernest Jones, *Théorie et Pratique de la psychanalyse*, traduit de l'Anglais par Annette Stronk, Paris, Payot et Rivages, 1967.

Fahd Taoufik, art. « Ibn Sirin », in *Encyclopédie de L'Islam*, Nouvelle Edition, Leyde: E.J. Brill et Paris G-P. Maisonneuve – Larose, 1975.

Jung Gustave, *Essai d'exploration de l'Inconscient*, traduit de l'allemand par Laure Deutshmeister, Denoél, 1964.

Laroussi Foued, « Electonic Arabic – French code Switching », in *Code – switching, Languages in contact and Electronic writings*, (Ed), Peter Lang, Frankfurt 2011, pp. 133 – 146.

Le Goff Jacques, *L'imaginaire médiéval*, Paris, Gallimard, 1985.

Lo Sadro Sébastien, « Flesh, Ink and Everiday life (De chair, d'encre et du quotidien: une ethnographie, du corps tatoué) », in *Varia*, N° 52-53, 2009.

Malinowski Bronislaw, *Jardin de Corail* (The coral gardens), Paris, Maspero, 1974 .

Mauss Marcel, *Œuvres 2,* Paris, Ed: Minuit, 1970.

Mondron Robert, *La culture populaire aux 17 et 18ème siècles*, Paris stock, 1964.

Patlagean Evelyne, « L'histoire de L'Imaginaire », in J. Le Goff, (sous la direction de) *La nouvelle histoire*, Paris, Retz, 1978, p 248 .

Patricio Rojas San Martin Roberto, « D'encre et de lumière », in *colloque international de Lestamp: Les sociétés de la mondialisation*, Université de Nantes, 2004.

Qian Han, « Un Roland Barthes entre le Texte et L'œuvre », in *Synergies*, la Chine, n° 5, 2010, pp 189-190

Racine Luc, « La terre - mère et les mères végétales en Océanie et en Asie du Sud-Est: Symbolisme et analogie », in *Revue Ethnographie*. n°98-99, Paris, Société d'ethnographie, 1986, pp.27-50

Roy Janine, « De la créativité au sens social à travers les rêves », in *Société française de Psychologie Adlérienne*, Bulletin n° 96, 2000, p.14, p.17

Sacriste Valérie, « Communication publicitaire et consommation d'objets dans la société moderne », Paris, PUF, *Cahiers internationaux de sociologie*, n° 112, 2002/1, pp.123-124

Sourdel Janine et Dominique, «Ecriture islamique», in *Dictionnaire historique de l'Islam*, Paris, PUF, « Quadrige », ٢٠٠٤.

Tedlock Barbara, « Dreaming and dream research », in *Dreaming*, New Mexico, School of American Research, Advanced Seminar Series, Edited by Barbara Teldock, pp. 1-3

Veyne Paul, *Les Grecs ont-ils cru à leurs mythes ?,* Paris, Seuil, 1983.

المواقع الإلكترونيّة:

https://fr.wikisource.org